الكثيرون الى التساؤل : ما العمل ؟ ماذا يمكن ، وماذا يجب القيام به ؟ ماذا يتوجب عليهم القيام به لتحقيق هدفهم في العودة الى بلادهم والتمتع بحقوق متساوية مع غيرهم من السكان ؟ هناك عدد كبير من الفلسطينيين ينحون باللائمة على بريطانية ووعد بلفور لضياع فلسطين وتشريدهم منها . ولكن عندما يتمعن المرء في نص الوعد يدرك انه لا يفعل ذلك : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتحقيق هذه الغاية مع البيان الجلي بانه لن يفعل شيء يضر الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الان ؟ ولا الحقوق أو المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى . » وبشكل **حرفي** نرى ان الوعد يعلن فقط ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن في فلسطين ... أضف الى ذلك ، ما هو وعد بلفور ؟ انه مجرد رسالة موجهة من السيد بلفور الى البارون روتشيلد الذي لم يكن سوى مواطن بريطاني عادي يعتنق الديانة اليهودية . حقا انه لوعد غامض ذلك الذي لا يشغل الحكومة او يلزمها سوى بـ « النظر بعين العطف » . انه لوعد غامض يتعلق بمصير بلاد لم تكن على الاطلاق تحت سلطة بريطانية . قيمته هي كقيمة رسالة يوجهها أي وزير خارجية لزعيم احدى الاقليات في بلده « ينظر فيها بعين العطف ... » لتحقيق امال هذه الاقلية في بلد طرف ثالث ، لذا فان مساهمة الوعد في مساعدة الصهيونيين المسيطرة على فلسطين لا تعود الى قيمته بحد ذاته او الى قانونيته بل الى الطريقة التي استعملها الصهيونيون واتباعهم للاستفادة منه . فكما نجحوا في اقناع العالم بأن فلسطين أرض بلا شعب ولا ثقافة سوى الثقافة اليهودية — مع ان اقتناع العالم بذلك ، نظرا لتاريخ فلسطين ، أمر من الصعب فهمه — نجحوا في اقناع هذا العالم ايضا ان رقعة الورق التي كتب عليها وعد بلفور هي بمثابة صك ملكيتهم لفلسطين . والحقيقة ان نجاح الصهيونيين لا يعود الى حصولهم على وعد بلفور بل الى الحملات الدعائية التي غطت العالم والى حشد الرأي العام اليهودي والمترددين من اليهود حول فكرة « الوطن اليهودي » في فلسطين . وبشكل تدريجي تحولت الدعاوة وسياسة جمع الانصار الى حملات من الضغط المنظم والمدروس ومن ثم الى ارهاب وغزو مسلح تمكن من التغلب على « العقبة » التي كان يشكلها وجود البريطانيين والفلسطينيين في فلسطين ، ومؤخرا العقبات التي يشكلها الوجود العربي المحاذي للدولة الصهيونية . أما بالنسبة للانظمة العربية التي وجدت بفضل بريطانية في هذه المنطقة « المبلقنة » فقد كانت منهمكة جدا في ترسيخ اوضاعها الاقليمية الضيقة وفي بناء حكم سلالي لدرجة منعتها من توحيد صفوفها وحشد طاقاتها في سبيل قضيتها المشتركة . ولصد قوة اسرائيل العسكرية او التغلب عليها بكل ما تمدها به الدول الغربية من أسلحة ومساعدات كان يتطلب من العرب حشد جميع امكاناتهم ، تماما كما هم الصهيونيون في حالة تعبئة دائمة وشاملة ، او على الاقل على استعداد للتعبئة في غضون ساعات قلائل . ومنذ ان نالت الدول العربية استقلالاتها لم تشعر بدرجة كافية من الارتياح داخليا لتولي الشعب مهمة الدفاع عن حدودها . فالجيوش العربية كانت دائما تحشد ، أولا واخيرا ، لحماية هذا النظام او ذاك الحاكم . أما الصهيونيون فقد تخطوا احلام اولئك الخياليين الذين كانوا في القرن التاسع عشر يحلمون بمستعمرات في فلسطين ... كخطوة نحو ارض اسرائيل . وبالنسبة للشعوب العربية تميزت فترة الخمسين سنة الاخيرة من تاريخهم بسلسلة طويلة من الامال الجياشة للاستقلال الحقيقي ، اما منذ ١٩٤٨ فتميز تاريخهم بسلسلة من الهزائم عندما توسعت الدولة الصهيونية من مجرد « وطن في فلسطين » لتصبح امبراطورية صغيرة تشمل اراضي ثلاث دول مجاورة ولديها الاستعداد لمزيد من التوسع . وهكذا فليس امام العرب في الاراضي المحتلة القيام بشيء حيال قضيتهم سوى انتظار تحقيق المعجزة الاميركية بانسحاب جزئي للقوات الاسرائيلية ، او في حال فشل ذلك ، القبول بالامر الواقع الاسرائيلي ، وذلك ما لم تتحقق المعجزة الكبرى وهي اتخاذ قرار قمة عربي بحشد كافة القوى العربية لارغام القوات الاسرائيلية على الانسحاب الى حدود ما قبل الخامس من حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وهكذا نرى انه ليس الغرب فحسب هو الذي ينظر شزرا الى الوطنيين العرب . وعلى أي حال ،